أثر الهيرمينوطيقا الغربية في تأويلية الفكر العربي المعاصر

محمد أركون نموذجا

مصطفى كمال المعاني(*)

ملخص

يعمد أركون إلى توظيف كل الأدوات الإجرائية، والمفاهيم، والتصورات، والمناهج التي تقررت في العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية، وكل النظريات الفلسفية والنقدية التي أنتجتها الخبرة الغربية من مثل «اتجاهات تحليل الخطاب»، و«النقد الأدبي»..، كما و يوظف محمد أركون مجموعة من المفاهيم وهذه المفاهيم هي بمثابة الآليات التي اعتمدها لفتح آفاق التأويل، وتجاوز الفهم الدوغمائي للتراث محاولة منه لإنعاش قراءة النص الديني، والتعاطي مع التاريخ بوعي جديد، وتجريب قراءات لم تجرب بعد. وما يميز أركون هو أنه لا يلتزم بنظرية بعينها و إنما ينتقي من النظريات والمفاهيم ما يتناسب مع تأويله للفكر الديني.

ومع إقراره بصعوبة العقبات التي تواجه مثل هكذا تعامل مع الفكر الإسلامي، إلا أنه يرى ضرورة أن يتحرر الفكر الإسلامي من كل أشكال التخلف المعرفي والمنهجي التي يرزح تحتها، من خلال التأسيس لطريقة جديدة في التفكير الديني منفتحة على إنجازات الحداثة وغير خاضعة لأسبقيات تيولوجية، والابتعاد عن الخط التبجيلي.

إن التأويلية عند أركون تركز على المتلقي وتعطي له الحق في إعادة بناء القصد الأصلي بما يتناسب والمتغيرات الجديدة. بل ويدعو أركون إلى تعدديَّة المعنى واختلافه باختلاف أدوات التأويل، وبالتالي فإن كل المعاني هي متساوية ولا يوجد معنى صحيح ومعنى خاطئ، فالمعاني

(*) محاضر غير متفرغ في الجامعات الأردنية.

تتعـدد بتعدد المذاهب والفـرق والفئات الاجتماعية بشـكل عام. وتحريـر الفعالية التأويلية وفتحها على اللانهائي وهو الهدف تأويليته المختلطة.

تعمـد هذه الدراسـة إلى توضيح كيفية توظيف أركون المناهـج الغربية في قرآءة التراث، وهل نجح في سبك تأويلية متميزة تحقق أهدافه التي أعلن عنها سابقاً.

أثر الهيرمينوطيقا الغربية في تأويلية الفكر العربي المعاصر - محمد أركون نموذجاً.

المقدمة

لا يـتردد أركـون في التوسـل بالمناهج الغربية المختلفـة لقراءة الفكر الإسـلامي من مثل المنهجيـة السـيميائية، والمنهجية الألسـنية، والمنهجية التاريخيـة السوسـيولوجية، والمنهجية الأنتربولوجية، والمنهجية الظواهرية، والمنهجية الفلسفية... إلخ. فقد تناولها خدمة لمشروعه التأويلي على النحو التالي:

أولاً: القراءة السيميائية:

مسـتنداً إلى أعـمال: فرديناد دوسوسـير F. DE SAUSSURE، وبـيرس C. S. PEIRCE وغيرهمـا. ومنها يركز أركون على النظرة الجديدة للعلامـة اللغوية، وهي النظرة التي ارتبطت بما يسـميه «الطفرة السـيميائية» وهـي التحول الذي طرأ عـلى فهم ومقاربـة العلامة اللغوية «ومقارنتهـا بالعلامـات الرمزية الأخرى التي تشـكل في المجتمع الفضاء الرمـزي، فنجده في القراءة السـيميائية يركز على بنية المخطط السـيميائي المتكون من الفاعلين الأساسـيين وهم: المرسل، والمرسل إليه الأول، والمرسل إليه الثاني.

ثانياً: القراءة الألسنية:

وفي القراءة الألسـنية يعمل على التأسـيس لألسـنية جديدة للغة الدينية، ويقارن في ذلك خصائص اللغة الدينية، باللغة الأدبية... لأن اللغة الدينية ليست أداة للتوصيل فقط، فاشتغال اللغـة الدينية على المعنى يختلف عن اشـتغال اللغـات الأخرى. ويقترح أركون قراءة ألسـنية لسـورة الفاتحـة، حيث يـدرس صائغـات الخطاب، وهـي حروف اللغـة ومفرداتهـا وأفعالها وضمائرهـا، وهدفه ليس الكشـف عن الخصائـص النحوية للغة العربيـة، وإنما فهم خيارات

المتكلم أو صاحب الخطاب أي منتجه، وسبب اختياره لهذه المفردات دون غيرها، والهدف من كل ذلك هو معرفة الطاقة التعبيرية للغة.

ثالثا: القراءة التاريخية:

مسترشداً بـ سبينورا SPINOSA باعتباره المؤسس الحقيقي للنقد التاريخي للنصوص المقدسة، حيث يقوم أركون بنقد قصة تشكل المصحف ونقد مجموعات «الصحاح» للمذاهب الإسلامية عند السنة، والشيعة، والخوارج كما يقوم أيضاً بنقد خطاب السيرة النبوية، ونقد التصور القروسطي للعالم ككل. فإن أركون يعمل على تطبيق النقد التاريخي على المقدس كما سبق أن طبقه الغربيون على نصوص العهد القديم والعهد الجديد.

رابعا: القراءة الاستشراقية:

لقد نقد أركون المنهجية الاستشراقية، وهي المنهجية الفيلولوجية التاريخانية، وأبرز عيوبها ونقائصها، لكنه يأخذ ببعض نتائج البحث الاستشراقي خاصة فيما يتعلق بإعادة ترتيب المصحف وفق تاريخ النزول، كما نجده أيضاً يساير بعض المستشرقين في تأويلهم لبعض الآيات، ويبدي إعجابه ببعض الدراسات الاستشراقية المتقدمة ابستمولوجيا على الفكر الإسلامي التقليدي.

خامسا: القراءة الفينومينولوجية (الظواهرية):

يقوم مشروع أركون أساساً على إبراز تهافت القراءة التفسيرية الكلاسيكية اللاهوتية، وبيان تناهيها. ولذلك نجده يبرز في أكثر من موضع الأسس والمسلمات التي تستند إليها هذه القراءة، لكي يقترح بدلها آفاقاً جديدة لقراءات استكشافية، ولتأويلات لم تجرب بعد للنص القرآني، ولتحقيق ذلك فإنه يقوم بالتحليل الظاهراتي (الفينومينولوجي) للتحديد الأرثوذكسي للوحي كما استقبل وعيش عليه من قبل جميع المسلمين. أي وصف ظاهرة الوحي كما هي عليه في الزمان والمكان، بعيداً عن البحث في أسبابها والقوانين والمعايير التي تحكمها، ويبدأ أركون وصفه الظاهراتي للوحي كما هو عند المسلمين بقوله: «إن التعريف التبسيطي للوحي في السياقات الإسلامية يقدم من خلال عبارتين شعائريتين مستخدمتين على نحو عام أو شائع من قبل أي مسلم عندما يستشهد بأي مقطع من القرآن. فهو يبتدئ كلامه قائلاً: «قال الله تعالى»... وينهيه قائلاً: صدق الله العظيم».

وهذا الأمر بالنسبة لأركون تترتب عنه نتائج تجعل الوحي بعيداً عن كل تحري نقدي، لأن معنى ذلك أنه «لا يوجد أي مجال للمناقشة حول التأليف، أو حول المكانة الإلهية لمضمون النص المستشهد به، أو حول تناسب الاستشهاد مع الموضوع أو مع الظرف الذي استشهدوا به من أجله».

سادسا: القراءة الأنتربولوجية:

حيث يقارب ظاهرة المقدس، ويسجل أن المقدس ظاهرة تخص كل المجتمعات البشرية في التاريخ بما في ذلك أكثر المجتمعات علمانية، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون مقدس. ولكن أركون يقرأ المقدس في التاريخ، من خلال فحصه لما يسميه سوسيولوجيا التقديس أو استراتيجيات المقدس في التكوين الاجتماعي، ومعنى ذلك أن المقدس لا يمكن فصله عن الصراعات القائمة بين الفئات الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية، كما يدرس أيضاً في القراءة الانثربولوجية القوى الأساسية المشكلة للمجتمعات العربية الإسلامية، ويميز بين القوى المهيمنة والقوى المهيمن عليها، كما يستعين أيضاً بالتاريخ المقارن للأديان، لموضعة الإسلام ضمن خط الديانات التوحيدية الكبرى.

سابعا: القراءة الفلسفية:

وهي شرط جميع القراءات السابقة عنده لأنها تحافظ على مبدأ الحرية النقدية تجاه كل الترعات الدوغمائية، فتدخل الفلسفة ضروري لأنها موقف نقدي تجاه كل الخطابات التي تقدم نفسها على أنها خطابات تنص على الحقيقة. ولذلك اهتم أركون كثيراً بما سماه سوسيولوجيا فشل الفكر الفلسفي والعقلاني في الثقافة العربية وما ترتب على ذلك، ويركز على مثال ابن رشد، وكيف أن فكر ابن رشد نجح في الغرب وساهم في تقدم الحضارة الغربية، بينما فشل في الفكر العربي الإسلامي.

وفي سياق القراءة الفلسفية يقارب الحقيقة من منظور تأويلي. فالحقيقة لم تعد شيئاً جاهزاً أو معطى كاملاً، ويميز أركون بين ما يسميه «الحقيقة السوسيولوجية» و« الحقيقة الحقيقية» ومرجعه في ذلك هو الفكر الفلسفي الغربي المعاصر، وتحديداته التأويلية والابستمولوجية للحقيقة.

إن هذه القراءات التأويلية للظاهرة الدينية تساهم في تقديم فهم جديد للنصوص المقدسة وللدين بشكل عام، وتحرر العقل الإسلامي من انغلاقاته الدوغمائية المزمنة باصطلاح أركون.